الباب الخامس عشر

في معاريض الكلام

إياك والكذب:

فمن عادة العرب التعفف عن ذكر الكلام القبيح، ويستعملون الكنايات في كل أمر يستحيا من ذكره، أو يقبح لفظه وهذا أدب رفيع، ومروءة عالية، وخلق نبيل أقره الإسلام، وحثّ عليه، وقد استعمل القرآن الكريم الكناية في كثير من الأمور، وأنى لنا أن نتخلق بأخلاق القرآن الكريم،الذي تخلق به رسول الله ﷺ.

فالسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن،والحياء من الإيمان، فالقرآن الكريم كنى عن الجماع بالملامسة، حيث قال الله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والله سبحانه وتعالى يعلمنا آداب الأخلاق الفاضلة للتخلق بها.

وحاد الذكاء وسريع الفطنة، وحاضر البديهة قد يستعمل الكنايات ومعاريض الكلام في حديثه، فلا يفهمه إلا من كان على شاكلته، وفي مستوى فطنته وذكائه، وللعرب حكايات كثيرة في حصول أناس على جوائز أو نجاة آخرين من موت محقق أو هلاك مؤكد بسبب استعمال الكنايات ، ومعاريض الكلام.

وقد يستعمل أحدهم الكناية والتعريض، فيزين عمل رجل متصنع في عيون الناس، ويظنون أن الوصف على ظاهره فيقعون فيما يكرهون، ولا يفطنون لذلك إلا عند ما تكشف الحقيقة ويقع الأمر.

خطب رجل إلى قوم فجاؤوا إلى الشعبي يسألونه عنه، وكان الشعبي عارفاً فقال:هو والله ما علمت نافذ الطعنة، ركين الجلسة فزوجوه، فإذا هو خياط، فأتوه فقالوا :غررتنا، فقال : ما فعلت،إنه لَكَمَا وصفت لكم.

وقال ابن قتيبة عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري للشعبي: ما تشتهي؟. قال الشعبي: اشتهي أعز مفقود، وأهون موجود،فقال ابن قتيبة: يا غلام اسقه ماء.

وأحسن الكنايات العدول عن الكلام القبيح، إلى ما يدل على معناه في لفظ أبهى منه ، ومن ذلك أن يعظم الرجل فلا يدعى باسمه، ويكنّى بكنيته أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه.

ومن التعريض اللطيف أن يذكر الشخص أمراً أو حادثة أو قصيدة فيها شيء يشابه طلبته، ويماثل حاجته، ومن لطيف التورية وجيدها ما روي أن رجلا من أشراف

البصرة دخل على زياد، فقال له زياد : أين مسكنك من البصرة؟. قال الرجل: في وسطها، ثم قال له زياد : وكم لك من الولد؟(قال الرجل : تسعة).

فلما خرج الرجل من عند زياد قيل له : إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الولد إلا ولد واحد، وهو ساكن في طرف البصرة ،فلما عاد الرجل إليه سأله زياد عن ذلك فقال له : ما كذبتك لي تسعة من الولد، قدمت منهم ثمانية فهم لي، وبقي واحد معي، فلا أدري أن يكون لي أم علي، ومنزلي بين المدينة والجبانة (أي المقبرة)، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة، قال له زياد: صدقت.

وقد تكون الكناية والتورية ومعاريض الكلام، واستعمال التشبيه سبيلاً للوصول إلى المراد أو النجاة من هلاك محقق، ومثل ذلك، أخذ العسس رجلين وكانا ثملين من الشرب، وكان قد أصدر الحجاج أمراً من وجد بعد زمن محدد ليلاً خارج بيته يقتل، فلما وجد العسس الرجلين، وكانا قد سكرا من شرب الخمر، فقالوا لهما: من أنتما؟ فقال أحدهما:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً على باب ناره فمنهم قيام حولها وقعود

وقال الآخر:

أنا ابن من تخضع الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالذل وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فظن العسس أنهما من أولاد الأكابر والأشراف،فخلوا سبيلهما، فلما أصبحوا سألوا عنهما، فإذا الأول ابن طباخ ، والثاني ابن حجام.

ومما يروى أن الرسول الكريم ﷺ، أعطى المؤلفة قلوبهم يتألفهم على الإسلام، فأعطى عيينة بن حصن،والأقرع بن حابس، وسهيل بن عمرو،والحارث ابن كلدة ورجالاً لكل واحد منهم مائة من الإبل،وأعطى غير هؤلاء لكل واحد أقل من مائة، ومنهم العباس بن مرداس، فأنشأ العباس بن مرداس قائلاً أمام الرسول ﷺ:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون إمرىء منهم ومن تضع اليوم لا يرفع

حينئذ قال الرسول ﷺ: اقطعوا عني لسانه، فأكملوا له المائة فَرَضِيَ، والعبيد: اسم فرسه.

وروي أن امرأة، مدحت الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال : يا غلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، فقال: فطلب حجاما ليقطع لسانها، فقالت المرأة: ثكلتك أمك، إنما أمرك الأمير أن تقطع لساني بالصلة والجائزة.

حصافة خادم الملك:

أما غلام الملك، فبعد خروجه من منزله وسار في طريقه، تفقد الكتاب فلم يجده، وتفكر أنه تركه تحت فراشه فنسيه، فرجع إلى منزله فوافق خروج الملك من داره ووجد نعل الملك بالدار فتحير، وتأكد أن الملك لم يرسله بكتابه ذلك إلا لأمر يريد فعله، فسكت ولم يبد أي كلام، وتصرف تصرفاً طبيعياً، وأخذ الكتاب وسار إلى تنفيذ طلب الملك ، فلما قضى حاجة الملك عاد إليه، فأنعم عليه الملك بمائة دينار مكافأة له.

ولما رجع الغلام من عند الملك، ذهب إلى السوق،فاشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة ،وأتى إلى زوجه ، فسلم عليها وسلمها تلك الهدية الحسنة، وقال لها : قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟. ما عهدتك تفعل ذلك؟.

قال الغلام : إن الملك أنعم علينا بمال، وأريد أن تظهري لأهلك أثر تلك النعمة، قالت المرأة حبًّا وكرامة، ثم قامت من ساعتها،وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها، وبما جاءت به معها،وهي لا تعلم ما يريد زوجها بتصرفه ذلك نحوها فأقامت عند أهلها مدة شهر، فلم يذكرها زوجها، ولم يسأل عنها، ولا زارها، فلما طال مكوثها مع أهلها، ذهب إليه أخوها، وقال له: يا فلان ما الذي حصل لك مع فلانة، وما سبب غضبك عليها، فإما أن تحاكمنا إلى الملك، وإما أن تخبرنا سبب هجرك لأهلك؟.

القضية أمام الملك والقاضي:

فقال الغلام :إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو المرأة:

أيد الله مولانا قاضي القضاة، إني أجَّرت هذا الغلام بستاناً، سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة،فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره.

فالتفت القاضي إلى غلام الملك، وقال له: ما تقول يا غلام؟، فقال الغلام أيها القاضي، قد سلمت هذا البستان إليه، وسلمته إليه أحسن مما كان، فقال القاضي لأخي المرأة: هل سلم إليك البستان كما كان؟. قال أخو المرأة: نعم أيها القاضي، ولكن أريد منه أن يذكر السبب الذي دفعه لرده البستان إليّ.

قال القاضي للغلام: ما قولك فيما طلب منك ذكره؟. قال الغلام: والله يا مولاي القاضي، ما رددت البستان كراهة فيه، وإن كان لابدّ من ذكر سبب في رد البستان إلى أهله، فإنني جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني الأسد، فحرّمت دخول البستان إكراماً للأسد،وكان يقصد الغلام الملك الذي دبرّ دخول منزل الغلام أثناء غيابه حاملاً كتاب الملك، والأثر وجود نعل الملك، بعد كلام المرأة للملك فخرج خائفاً مدحوراً، إذ لم ينل مقصده.

فعلم الملك من فحوى كلامه، أنه المقصود بقول الغلام للقاضي بذكر السبب في رد المرأة إلى أهلها، وكان الملك حاضراً جالساً متكئاً، فاستوى جالسا، وقال الملك: يا غلام ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يحدث فيه حدثاً، ولم يؤثر فيه أثراً، ولم يذق منه ثمراً، فما علم حلوه من حامضه، ولا ميّز ناضجه من غضّه، ولم يلبث فيه الأسد غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، وما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره.

فرجع الغلام إلى داره وزوجته، وأكرمها غاية الإكرام، ولم يعلم القاضي ولا غيره من الحاضرين بشيء مما دار في المحكمة، وبحضرة الملك إلا الملك وغلام

الملك، وأخو المرأة، وهكذا ينبغي أن يكون المرء مراعياً بما يدور حوله، وإن كان الأمر يعنيه.

غلام يخدع المغيرة بن شعبة:

وقال المغيرة بن شعبة: ما خدعني أحد قط غير غلام، فإني ذكرت امرأة من قومه، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، قال المغيرة ولم؟، قال الغلام: إني رأيت رجلاً يقبِّلها إذ خلا بها، ثم بلغني بعد ذلك أن الغلام تزوجها، فأرسلت إليه، فقلت: ألم تعلمني عندما ذكرتها أنك رأيت رجلاً خلا بها يقبّلها؟ فقال الغلام: بلى رأيت أباها يقبلها ، وهو رجل.

من غريب التورية:

ومن جيد التورية وغريبها: ما أجاب به أبو بكر الصديق ﷺ، حينما هاجر الرسول، وسأله بعض من صادفهما وهم لا يعرفون الرسول، فقالوا من هذا؟. فقال لهم أبوبكر: هذا الرجل يهديني السبيل، فحسب السامع أنه يهديه الطريق، وإنما أراد أبو بكر يهديني إلى ما هو خير لي في الدنيا والآخرة.

ومرض زياد فدخل عليه القاضي شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمامة، وهو من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، وُلِّي قضاء الكوفة في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي ومعاوية، واستعفى أيام الحجاج بن يوسف فأعفاه عام ٧٧هـ، وكان يستعمل المعاريض في الكلام، دخل القاضي شريح يعود زياداً، فلما خرج بعث إليه مسرور بن الأجدع يسأله: كيف تركت الأمير زياداً؟. قال القاضي شريح: تركته يأمر وينهى، فقال مسروق: إن شريحاً صاحب تعريض عويص، فسألوه فقال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن البكاء.

من شعر ابن الحجاج في التورية:

ومما جاء من التورية قول ابن حجاج، حسين بن أحمد بن محمد البغدادي المتوفى عام ٣٩١هـ. وصفه الذهبي بقوله: شاعر العصر، وسفيه الأدب، وأمير

الفحش، كان أمة وحده في نظم القبائح، وخفة الروح، ومن شعره في التورية:

ألا يا ماء دجلة لست تدري بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سكرت سكراً عليك فلم تكن يا ماء تجري
وقال الماء قل لي كل هذا بم استوجبته يا ليت شعري
فقلت له لأنك كل يوم تمر على أبي الفضل بن بشر
تراه ولا أراه وذاك شيء يضيق عن احتمالك فيه صبري

من غريب الكنايات:

ويحكى أن بعض الملوك: طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره، لم ير الراؤون أحسن منها وأجمل، فسأل بعض جواريه قائلاً لهم: لمن هذه الجارية ؟.

فقالت الجارية: يا مولاي هذه زوجة غلامك فلان بن فلان، فنزل الملك، وقد تمكن حبها من قلبه، وشغف بها، فاستدعى الملك غلامه زوج المرأة، وقال له: يا فلان. قال الغلام: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وأمض به إلى البلد الفلاني، وسلمه إلى فلان ، وائتني بالجواب.

فأخذ الغلام الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز نفسه ودبر أمره، وبات ليلته ، فلما أصبح ودع أهله وانطلق إلى البلد التي أرسله إليها الملك، ولم يعلم ما دبره الملك بشأن أهل الغلام.

فلما خرج الغلام من منزله برسالة الملك، كان الملك يرقبه، فما إن اختفى الغلام عن الأنظار حتى قام الملك مسرعا، وتوجه إلى دار الغلام مختفياً، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة الغلام: من الطارق؟.

قال الملك: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت الباب له، فدخل الملك وجلس، فقالت زوجة الغلام: أرى مولاي اليوم عندنا، فقال الملك: زائراً، فقالت المرأة: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن زيارة مولانا فيها خير، فقال لها الملك : ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك، وما أظنك تعرفينني، فقالت المرأة : بل عرفتك ولقد علمت أنك

الملك، ولكن سبقك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ وذاك لكثرة الوراد فيه
إذا سقط الذباب على طعام كففت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن ولا يرضى مساهمة السفيه

ثم قالت المرأة: أيها الملك، تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه؟ فلما سمع الملك قول امرأة غلامه، بهت واستحيا من كلامها، فخرج مدحورا وتركها، فنسي نعله في الدار، هذا: ما كان من تدبير الملك.